الاتجاهات النظرية الاولى للمدخل البيئي

يكشف استعراض تراث علم الاجتماع وتاريخ التفكير الاجتماعي من قبله عن حقيقة هامة تتمثل في أن مفهومات مثل (البيئة) (النضال) (الصراع) (التوازن) (الوضع) (التفاعل) (وسبل العيش) (البناء) (التنظيم) (الموارد) .. الخ – وغيرها من المفهومات التي أصبحت (ايكولوجية) من الدرجة الأولى – كانت كلها أفكاراً محورية شغلت حيزاً كبيرا من اهتمام العلماء والمفكرين سواء كمجالات البحث أو متغيرات التحليل والتفسير

وقد يكفينا إدراك هذه الحقيقة لتأكيد الصلة الوثيقة بين الايكولوجيا وعلم الاجتماع ، او لتبرير محاولتنا هذه لتلمس المصادر السوسيولوجية لتطوير المدخل الايكولوجي في علم الاجتماع

وبطبيعة الحال ، قد لا يتسع المقام في محاولتنا هذه لتوضيح كل جوانب هذه الصلة ، أو تحديد تلك المصادر مجتمعة

فتراث علم الاجتماع واسع الجوانب ومتعدد الاتجاهات ، كما أن ما خلفته اتجاهات التفكير الاجتماعي من تراث أكثر اتساعاً وتشعباً ، ولا يخلو أي جانب من جوانب هذا التراث المتراكم – كما ذكرت- من اهتمام أو فكر أو تحليل ايكولوجي بمعنى أو بأخر

لذلك نقتصر في محاولتنا هذه على تلمس المصادر الاجتماعية للمدخل الايكولوجي في كتابات وأعمال عدد من مشاهير المفكرين الاجتماعيين ورواد علم الاجتماع ممن كان لفكرهم وكتاباتهم أثراً واضحاً ليس فقط في تطوير المدخل الايكولوجي بل في تحديد اتجاهات التطور بالنسبة لعلم الاجتماع ذاته

١) موتيسكيو (١٦٨٩-١٧٥٥) :

يمثل مونتسكيو Baron De Montesquieu اتجاها نظرياً في تاريخ الفكر الاجتماعي له جذوره البعيدة التي قد تمتد إلى هيبوقراط وأرسطو وبودان وغيرهم ، ممن افردوا للعوامل الطبيعية – وبخاصة المناخ- أهمية كبرى في التأثير على المجتمع الإنساني والحياة الاجتماعية

كما يمثل في نظرنا مصدراً من المصادر المبكرة والهامة في الايكولوجيا الاجتماعية

لقد كان هدف موونتسكيو في كتابه الشهير (روح القانون) 1748 The Spirit of Laws أن يوضح المبادئ الأساسية للتشريع ، واستبان له منذ البداية أن هناك توافقاً ملحوظاً وواضحاً بين النظم والتشريعات وبين طابع الشعوب التي تطبقها إلى جانب التفاعل المنسجم بين مختلف النظم والقوانين ووسائل الضبط الاجتماعي التي تستخدمها كل جماعة ،

ومن ثم شرع مونتسكيو في البحث عن العوامل المؤدية إلى تنوع الخصائص الثقافية والفيزيقية بين شعوب العالم ، فتوصل إلى أن أهم عوامل التنوع الثقافي وتباين الأنماط البشرية يتمثل في المؤثرات الجغرافية وبخاصة ظروف المناخ ،

وانتهى إلى أن بحث هذه العوامل وتحليل آثارها يمكن من فهم السمات المختلفة والمتمايزة لشعوب العالم ، كما يمكن من تحديد القوانين والتنظيمات المناسبة لكل نمط من الأنماط البشرية المتنوعة

وبغض النظر عما تنطوي عليه نظرة مونتسكيو من حتمية جغرافية متطرفة في كثير من جوانبها إلا أنها بتركيزها على خصائص البيئة والعوامل البيئوية كمتغير تفسيري ، كانت قد مست قضية لا تزال تثير قدرا من الجدل في الفكر الاجتماعي والايكولوجي على حد سواء

كما أنها مهدت في الوقت ذاته لنظرة أخرى كانت – ولا تزال – سمة بارزة من سمات المنظور الايكولوجي هي اعتبار المكان وخصائصه عاملاً أساسيا في التنوع الثقافي والاجتماعي أو بصفة خاصة ، الاهتمام بدراسة التوزيعات المكانية للسمات الثقافية والظواهر والنظم الاجتماعية

كذلك فانه بغض النظر أيضا عن اختلاف مستوى التحليل بين نظرة مونتسكيو وتلك النظرة الايكولوجية التقليدية – والتي ركزت على المجتمع المحلي في مقابل المجتمع بالمعنى العام والواسع – إلا أن تأكيد مونتسكيو لأهمية العوامل الجغرافية في تشكيل النظم الاجتماعية كان في نظر الكثيرين – مثل بارنز- دافعا لتطوير الانثروبوجغرافيا

كما يعد في نظرنا من المصادر المبكرة للايكولوجيا البشرية بفرعيها الثقافي والاجتماعي ، فلقد تابع العديد من الفلاسفة الاجتماعيين وعلماء الاقتصاد والجغرافيا وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا والايكولوجيا نظرة مونتسكيو بدرجات متفاوتة من الحتمية

وكثيرون ممن اكدوا التأثير المتنوع للظروف الجغرافية والطبيعية على سلوك الانسان وسيكولوجيته وعلى التنظيم الاجتماعي والعمليات الاجتماعية والايكولوجية.

٢) فردريك لبلاي ١٨٠٦-١٨٨٢:

أتيحت الفرصة أمام لبلاي F.Leplay الذي عمل مهندساً استشارياً لبعض شركات التعدين ، أن يتعرف وان يدرس ظروف الحياة التي تعيشها الطبقات العاملة في بيئات مختلفة ، وان يتلمس عن قرب مختلف المشاكل التي تواجه هذه الفئة الاجتماعية وبخلفية الباحث الطبيعي راح لبلاي يدرس المشاكل الاجتماعية بنفس المناهج والطرق المستخدمة في العلوم الطبيعية من ملاحظة وتسجيل للوقائع إلى قياس وتحليل كمي عددي ، وقد تجلى هذا الأسلوب في دراسته الشهيرة والجادة عن أحوال الأسرة وميزانيتها وعن الإصلاح الاجتماعي وتنظيم العمل .. الخ

ولقد تحدد الإطار التصوري لدراسات لبلاي في النظرة إلى المجتمع الإنساني كنسق من العلاقات تمثل فيه الأسرة وحدة اجتماعية أساسية باعتبارها ابسط شكل من أشكال التجمعات الإنسانية

كما تحدد في النظر إلى الأسرة على أنها كيان مستقل بذاته ، بل في ارتباطها ببيئة تحدد شكلها وأنماط سلوكها وتأثرها الدائم والمستمر بأشكال النشاط الاقتصادي والتنظيم المعيشي السائد ، ذلك أن من أهم وظائف الأسرة ، في نظره الحصول على أسباب العيش وتوفير سبله لأعضائها عن طريق (العمل) كما أن النمط المعيشي في نظره ، يتحدد من خلال المكان وخصائصه وموارده ، أي من خلال الظروف الطبيعية والبيئة المحيطة .

ومن هنا استندت تحليلات لبلاي لما جمعه من ملاحظات على ثلاثة مقولات أو أبعاد أساسية هي

(المكان) (الناس) (العمل) ومن هنا ذاعت شهرة لبلاي كمفكر اجتماعي لتأكيده على هذا الثالوث (الاجتماعي) في مقابل الثالوث الحيوي الايكولوجي

(البيئة- الوظيفة- الكائن العضوي)

ونستطيع أن نتلمس الجانب الايكولوجي في فكر لبلاي في اهتمامه بوضع عدد من التعميمات التي تدور حول تأثير البيئة الطبيعية والجغرافيا (المكان) على الجوانب المختلفة للحياة والتنظيم الاجتماعي.

حقاً لقد كان هذا التأثير أمراً معروفا ومعترفاً به حتى قبل لبلاي ، ألا أن الفضل يرجع لدراساته الجادة في أنها أثرت في معرفتنا بهذا المجال وفي أنها أوضحت مظاهر هذا التأثير ووسائله ، خاصة فيما يتعلق بارتباط المكان بالعمليات الاجتماعية والتنظيم الاجتماعي

أن السبب الأساسي لتنوع شعوب وسلالات العالم يرجع في نظره إلى المكان الذي انحدرت منه ، أي إلى البيئة التي تخلق ، على حد تعبيره ، كل من السلالة والنمط الاجتماعي

حتى أن أي تغير يطرأ على المكان والبيئة يصاحب بالضرورة بتغيرات في خصائص السلالة وفي توزيع الأنماط البشرية الاجتماعية وقد دفع هذا الموقف بلبلاي ورفاقه إلى وضع عدد من التعميمات والارتباطات بين المكان ومختلف الخصائص المميزة للتنظيم الاجتماعي من أهمها ارتباط المكان بأشكال العمل والملكية ، وبنموذج الأسرة ، وبالمنظمات والتنظيمات التي تقوي الأسرة حجما ووظيفة ، وبعدد من العمليات والظواهر الاجتماعية كالهجرة والعقيدة والحروب.. الخ

لذلك كانت دراسات لبلاي علامة بارزة في تاريخ اهتمام عالم الاجتماع الايكولوجي بصفة خاصة بالخصائص المكانية ، كمتغير مستقل ، بصدد شرح وتفسير العديد من المسائل والموضوعات ذات الطابع الاجتماعي البحث ، وبالتالي دفعت إلى ما طور فيما بعد من دراسات اهتمت بالتوزيع المكاني للظواهر الاجتماعية كأهم ما يجب أن تعنى به الدراسات الايكولوجية والسوسيولوجية بوجه عام .

٣) هربرت سبنسر (١٨٢٠-١٩٠٣) :-

نستطيع أن نحدد أهم مقومات ما سمي فيما بعد بالمدخل الايكولوجي في تفكير سبنسر في ثلاثة أفكار أساسية هي : فكرة أن المجتمع يشكل نسقاً ذو انتظام ذاتي وفكرة تمايز الوظيفة ثم فكرة التطور.

وتلعب المماثلة البيولوجية ، أي مماثلة المجتمع بالكائن الحي ، وبالتالي محاولة تأكيداً أن ما يصدق على الظواهر البيولوجية ينسحب على الظواهر الاجتماعية ، دوراً أساسياً في بلورة هذه الأفكار الثلاثة السابقة

فالمجتمع الإنساني ، في نظر سبنسر ينتظم في نسق يماثل تماماً الكائن العضوي فمراحل الحياة بالنسبة لكل منهما واحدة (نمو، ونضج، وتدهور أو انحلال) ،

كما أن كلاهما يتميز عن المادة غير العضوية بالنمو الذي يمكن ملاحظته خلال مراحل وجوده (فحينما ينمو الطفل ليصبح رجلا ، كذلك ينمو المجتمع المحلى الصغير ليصبح منطقة متروبوليته كبرى ، وتنمو الدولة لتغدو إمبراطورية)

أضف إلى ذلك ، أن نمو كل من المجتمع والكائن الحي يعني زيادة في تعقيد البناء ، الذي يرتبط بدوره بتمايز مضطرد لوظائف أجزائه ومقوماته (فتعدد الأعضاء وتعقدها في الكائن الحي ، وتعدد التنظيمات وتعقدها في المجتمع يصاحب بالضرورة بتخصص وتمايز وظيفي لكل من هذه الأعضاء والتنظيمات) ،

وبغض النظر عما ذكره سبنسر من اختلافات بين المجتمع والكائن الحي ، إلا أن فكرة المماثلة هذه تثير في الحقيقة فكرة (النسق) التي تشير بدورها إلى أي كيان يمكن تصوره على انه كل يتركب من أجزاء شبه مستقلة تتساند فيما بينها على نحو وظيفي متبادل

وهذا ما يصدق على كل من المجتمع والكائن الحي ، كما أن النسق بهذا المعنى يشكل – كما رأينا- فكرة محورية ذات أهمية وتاريخ طويل في التحليل الايكولوجي .

أن المجتمعات الإنسانية ، في نظر سبنسر، عبارة عن جموع (فوق عضوية) يقوم بينها ما نسميه (بتوازن الطاقة) تماما كما هو الحال في النسق الايكولوجي والطبيعي للكائنات الحية الدقيقة ،

ويأخذ هذا التوازن ، سواء بين المجتمعات بعضها وبعض ، أو بينها وبين بيئاتها ، شكل النضال من اجل البقاء والوجود ، ومن ثم يصبح الصراع نشاطاً مألوفا في المجتمعات الأكثر قربا وتأثراً في البيئة الطبيعية

وفي خضم هذا الصراع ، يظهر الخوف من (الأحياء) ليمثل أولى جذور الضبط السياسي ، كما يظهر الخوف من (الأموات) ليمثل أولى جذور الضبط الديني ،

الأمر الذي يفرض طابعا(عسكريا) على الحياة الاجتماعية بحيث يوضع التنظيم الاجتماعي وتحدد أنماط السلوك في مواءمة مع حياة الحرب وهذا هو حال المجتمعات البدائية أو الأقل تطوراً ،

غير انه سرعان ما يدفع هذا الموقف بالجماعات الصغيرة إلى التوحد والترابط في جماعات اكبر فاكبر ، مما يحقق في النهاية تكاملا اجتماعيا يوسع من القاعدة التي تعمل وتتحرك فيها الجموع المتزايدة،

وهذا يضفي على الحياة الاجتماعية طابعاً أخر، يضع السلوك والتنظيم الاجتماعي في مواءمة مع حياة السلام والمحبة والتعاطف ، فيتلاشى القهر والجمعية ويحل محلها الفردية والطوعية كما تزداد مرونة التنظيم الاجتماعي دون تقويض أو تخريب للتماسك الاجتماعي.

وعلى هذا النحو السابق يكشف تاريخ كل من المجتمع والكائن العضوي عن عملية تطورية تتضمن زيادة في الحجم والتعقيد

لذلك كانت الأشكال الأولية للحياة العضوية ذات البناء الأكثر بساطة (أحادية الخلية) تشبه تماماً التجمعات الإنسانية البسيطة والمنعزلة ،

بينما تكشف أكثر أشكال الحياة العضوية تطوراً عن تمايز وتعقد في البناء والوظائف تماثل تماما الأشكال الأكثر حداثة وتطوراً للحياة الاجتماعية ،

ولما كان الكائن الإنساني هو أخر الأشكال التي وصلت إليها عملية التطور العضوية ، فانه يمكن النظر إلى المجتمع الصناعي الحديث على انه أخر شكل للعملية التطورية فوق العضوية ، فالتماثل واضح وقوي بين هذين الشكلين سواء في التركيب البنائي والوظيفي ، أو في الاتجاه العام للنمو والتطور ،

ويعتمد انتقال المجتمع من المرحلة البدائية البسيطة (العسكرية) ، إلى الحالة المتقدمة والمعقدة (الصناعية) على مدى توازن الطاقة بين المجتمع والمجتمعات المجاورة، وبينه وبين البيئة الطبيعية.

٤) ليستر وارد (١٨٤١-١٩١٣) :

يعتبر كتاب ليستر وارد L.Ward (علم الاجتماع البحت 1903 (Pure Sociology ، من الأعمال الرائدة في الايكولوجيا وعلم الاجتماع سواء بسواء ، فقد حاول فيه أن يمتد بالمفهوم البيولوجي (للتكافل) ليجعل منه مبدأ أساسي للعمل التعاوني المشترك بين أفراد المجتمع الإنساني ، لذلك فهو يعد في نظر الكثيرين واحداً من الرواد الأوائل لما سمى من بعده(بالايكولوجيا الاجتماعية)

يمثل (الانجاز الاجتماعي Social Achievement) – في نظر وارد- الموضوع الأساسي لعلم الاجتماع ، فهو لا يعني بدراسة ماهية الأفراد وطبيعتهم ، قدر عنايته بدراسة أعمالهم وأفعالهم

أي انه لا يهتم بدراسة (البناء) بل يهتم أساساً بدراسة(الوظيفة)

وفي كتابه (علم الاجتماع البحت أو النظري) ميز وارد في النسق الاجتماعي بين النشأة والتطور التلقائي للبناءات والوظائف الاجتماعية وبين العمل الإصلاحي المقصود والواعي

أما مناقشته للموضوع الأول ، فقد تناولت عددا من الموضوعات ذات الدلالة الايكولوجية الهامة كالتركيب الخلاق ، وقانون الاقتصاد ، والأصل البيولوجي للعقل ووظائفه ، والاستاتيكا والديناميكا الاجتماعية ، وتصنيف القوى الاجتماعية.. الخ .

وبالتركيز على الاستاتيكا الاجتماعية نجدها – في نظر وارد – ترتبط بالتوازن الاجتماعي وتوطيد النظام الاجتماعي العام ، أي بتكوين البناءات الاجتماعية ،

ويسير نمو النظام الاجتماع العام في عملية مستمرة للنضال من اجل البناء ،أكثر منها نضالاً من اجل البقاء أو الوجود ،وخلال هذه العملية ، يكون العمل الاجتماعي التعاوني أكثر المبادئ أهمية وضرورة:

فهو القوة التي توحد كل الأبنية وتفسر كل التنظيمات وعن طريقه تشترك القوى المتنافرة في الطبيعة وتتعاون في شكل تعاقب مضطرد لعمليات التصادم، فالصراع ،فالتنافر ، فالتعارض، فالتنافس ، فالتفاعل فالتقارب، فالمشاركة فالتعاون فالتنظيم..

وفي عملية تطور النظام الاجتماعي يحدث العمل الاجتماعي المشترك من خلال عملية أخرى أسماها ورانر(بالانقسام الفتيلي Karyokinesis يقصد بها مماثلة اجتماعية للتخصيب في المجال الحيوي ، تظهر ماثلة في عمليات الاحتكاك والدمج والتمثيل التي تقوم بين الجماعات الاجتماعية المتنافرة ، والتي تحقق في النهاية الجمع المتجانس والمنسجم.

اما الديناميكا الاجتماعية ، فترتبط بالتقدم وبتغيرات بناء المجتمع وفي هذا الصدد يذكر وارد ثلاثة مبادئ أساسية هي اختلاف الإمكانية والجهد والتجديد ، والنزوع

أما المبدأ الأول فيشير إلى التقدم الذي ينتج عن اختلاف العناصر المتنافرة كما يحدث مثلا في عمليات التمثيل والدمج الثقافي .

أما التجديد وهو يمثل عنده مماثلة اجتماعية للشذوذ أو التغير المفاجئ في المجال العضوي ، فهو نتائج للوفرة والحيوية الروحية والنفسية المؤدية إلى التقدم ،

ويعد النزوع جهداً اجتماعياً لتطبيق واستخدام الطاقة الاجتماعية اللازمة لتحقيق الأهداف وانجازها ، فالجهد الذي يبذله الفرد لإشباع حاجاته والتوافق مع بيئته يعتبر في نظره أهم عوامل التقدم.

وفي مناقشته للعمل الإصلاح المقصود بدأ وارد بقضية أساسية مؤداها (أن النمو لاجتماعي يقتضي ضبطاً وتوجيهاً للطاقة) وذهب إلى أن هناك طريقتين لتحقيق هذا الضبط ،

تتمثل الأولى في الضبط غير الواعي الذي تقوم به الطبيعة والذي يتمثل في النشأة والنمو التلقائي

أما الثانية فهي الضبط الواعي من جانب العقل ممثلا في الإصلاح المقصود وبطبيعة الحال تسمو الطريقة الثانية عن سابقتها

إذا عادة ما تسرف الطبيعة في إيجاد كميات متراكمة من المادة الخام تتركها وشأنها لتصلح من نفسها ببطء شديد خلال عملية الانتخاب الطبيعي

هذا في الوقت الذي يتميز فيه العقل بالرشاد والاقتصاد والبحث والتنبؤ والتوفيق بين الغايات والوسائل

أن هذه العملية التي بمقتضاها يتم ضبط القوى الديناميكية في الطبيعة والمجتمع عن طريق توافق الغايات والوسائل ، تمثل جوهر الإصلاح الواعي المتعمد

وفي هذا الصدد يذكر وارد أن تطوير الدولة كان أكثر الخطوات التي خطاها العقل والمجتمع أهمية في تاريخ البشرية

ومع ذلك نجده يقرر أن المجتمع لا يستطيع أن يحقق هذا الضبط الكامل للعمليات الاجتماعية ، ما لم يتمكن من تحصيل قدر كافي من المعرفة الدقيقة بقوى الطبيعة وبالقوى الاجتماعية في نفس الوقت

وقد يبدو لنا مما سبق أن وارد قد جسد بأفكاره وتصوراته السابقة ذلك التوجيه البيولوجي المبكر للفكر الاجتماعي بتأثير من كتابات داروين وأفكاره المعروفة

إلا انه يبدو لنا أيضا أن تأثير وارد كان أكثر وضوحاً في رواد المدرسة الايكولوجية في علم الاجتماع ، أو في المدخل الايكولوجي بصورته الكلاسيكية

ولعل من أهم مظاهر هذه التأثير أن بارك وهو احد الأقطاب المؤسسين لهذا المدخل قدم ثنائية مماثلة لثنائية وارد قصد بها التمييز بين مستوى (حيوي) وآخر (ثقافي) عند تحليل التنظيم الاجتماعي ، تلك الثنائية التي كانت أهم دعائم المدخل الايكولوجي المبكر ، والتي واجهت انتقادات متلاحقة ساعدت بدورها على تعميق الطابع السوسيولوجي للمدخل الايكولوجي في الوقت الحاضر

٥) باترك جيدز (١٨٥٤-١٩٣٢):-

تأثر باتريك جيدز Patrick Geddes بأفكار هايكل وهكسلي البيو ايكولوجية ، الا انه تجاوز اهتمامها بالدراسات المورفولوجية ، الي تؤكد على ما هو جامد وميكانيكي الى دراسة الكائنات الحية التي تتفاعل مع بعضها البعض ومع بيئاتها المختلفة

كذلك تاثر جيدز بأفكار لبلاي ودراساته فاخذ بمعادلته الشهيرة (المكان – العمل – الاسرة) التي ناظرت الثالوث البيوأيكولوجي (البيئة- الوظيفة- الكائن العضوي)

وعلى الرغم من اعتراضه على المقارنات الاستعمارية بين المجتمع والكائن الحي ، والتي قدمها سبنسر وتلاميذه ، الا انه نظر الى الحياة الاجتماعية في الانسان على انها شيئاً متصلاً ومستمراً مع حياة الكائنات الحية الاخرى لذلك نجده يترجم اطراف الثالوث الايكولوجي الى مفهوم اوسع من مفهوم لبلاي ممثلا في (المكان – العمل – الناس)

ولقد ادرك جيدز ما لمفهوم (الطاقة) الذي احتل مكانة هامة في العلوم الطبيعية ابان العقد الاخير من القرن التاسع عشر – من اهمية وحاول ان يتتبع تطبيقاته ونتائجه على المجتمع الانساني وفي هذا الصدد ، ذهب الى ان الجماعة الانسانية لا تتأثر فحسب ببيئتها؟، بل تتعلم كيف تسيطر عليها من خلال تحسين ادواتها ومعداتها التي تخلق مخزوناً هائلاً من الطاقة الحرة ، التي تستثمر بدورها في مجال الفكر والفن والترويج والانتاج ، كما تتعلم كيف تنتقد قوانينها وعاداتها وتعدل من تراثها عن طريق الانتخاب (الاختيار) الواعي المقصود

واذا كان مفهوم (الحتمية) يطبق بنجاح على الحياة في ادنى مستوياتها فان مفهوم (الحرية الخلاقة) يطبق وبنفس القدر من النجاح على الحياة في اعلى مستوياتها

وهكذا رفض جيدز ثنائية (الحتمية والادارة الحرة) في مجال علم الاجتماع ، كما رفضها من قبل في مجال البيولوجيا ، ان الحياة في نظره ليست مجرد (بيئة) تؤثر على كائن حي سلبي وخامل بل هي ايضا مسالة (كائن حي) يؤثر في البيئة ويعدلها.

وفي مجال ما عرف فيما بعد باسم (الايكولوجيا الحضرية) كان لجيدز بعض الاسهامات الهامة ، لقد ادرك الباحث دور المدينة في تطور واستمرار التراث الاجتماعي ، حقا لقد سبقه الى ذلك فوستيل كولانج الا ان الفضل يرجع الى جيدز في تعميم وتعميق هذه النظرة والسير بها خطوات ابعد

كما ان ما قام به من مسوح محلية واقليمية على المدينة (ادنبره) قد فاقت في اهميتها واسهاماتها لعلم الاجتماع الحضري والايكولوجيا الحضرية ما قدمته مسوح تشارلزبوث في مدينة لندن

ويرجع الفضل لجيدز في تطوير عدد من الاجراءات المنهجية للتخطيط الاجتماعي والحضري ، التي افادت كثيراً في الدراسات الايكولوجية فيما بعد ، كدراسات ماكيرجي Mukerjee وداوسون Dawson وغيرهم

ولعل من اهم ما يجب ذكره في هذا الصدد ان مفهوم (الاقليم Region) - الذي طوره علماء الجغرافيا البشرية في فرنسا وعلماء الايكولوجيا فيما بعد في امريكا – كان فكرة محورية في تفكير جيدز

لقد اوضح جيدز كيف ان هذا المفهوم يستحضر معنى الطبيعة كشيء او امر (مفروض) ، ومعنى الطبيعة التي (تعدل) باستمرار خلال الفعل الانساني ،

كما كان له بعض الاسهامات التطبيقية في مجال الايكولوجيا الحضرية من ابرزها اعادة تخطيط العديد من الاحياء المتخلفة في مدينة ادنبره

وتخطيطه وتنفيذه للأكثر من خمسين مسحاً على مدن الهند وفلسطين ، واشرافه على تخطيط جامعة اورشليم ومبانيها .. الخ ،

ولقد كان لأعماله النظرية والتطبيقية اثراً واضحا في تطوير الاسس النظرية والمنهجية للدراسات الايكولوجية ، التي اهتمت بصفة خاصة (بالتخطيط الاقليمي) و(الاقليمية) و(تطوير المدن) والتي شكلت واحدا من الاتجاهات البارزة في البحث الايكولوجي المعاصر

٦) اميل دور كايم (١٨٥٨-١٩١٧) :-

لم يكن دور كايم- شأنه في ذلك شأن سبنسر- عالماً ايكولوجيا اذ لم تكن وجهة النظر الايكولوجية قد تطورت بعد في مجال العلوم الانسانية ، ولكنه اطلع بطبيعة الحال على كتابات هايكل ، الرائد الاول لايكولوجيا النبات ومع ذلك نستطيع ان نتلمس بعض الجوانب الهامة للمدخل الايكولوجي لدراسة المجتمع ، في عدد من اعماله المشهورة بل وحتى في تصوره العالم لعلم الاجتماع .

لقد اعتبر دوركايم (المورفولوجيا الاجتماعية) احد الفروع الاساسية التي ينقسم اليها العلم ثم قسمه الى مبحثين رئيسيين هما : دراسة الاساس البيئي للتنظيم الاجتماع من ناحية ، ودراسة الظواهر السكانية كالكثافة والحجم والتوزيع المكاني من ناحية اخرى ، وكان هذان المبحثان اكثر الاهتمامات السوسيولوجية تطابقا مع الاهتمام الايكولوجي فيما بعد .

يعد العمل الاساسي والهام الذي قام به دوركايم في كتابه (تقسيم العمل الاجتماعي) والذي نشر لأول مرة سنة ١٨٩٣ ، اهم ما يوضح اسهاماته النظرية التي تضمنت كثيراً من المصادر السوسيولوجية المبكرة للمدخل الايكولوجي

وبخاصة اذا ركزنا على الجزء الثاني من الكتاب والذي عالج فيه اسباب تقسيم العمل ، وانطوى في تحليله المورفولوجي على افكار وقضايا واهتمامات كانت لها متضمناتها وانعكاساتها الهامة في المدخل الايكولوجي المعاصر.

في الجزء الثاني من كتابه (تقسيم العمل) حاول دوركايم ان يفسر التمايز الذي اخذ يتزايد وبوضوح في المجتمع الغربي ، حتى انه جعل العنوان الفرعي للكتاب (دراسة في تنظيم المجتمعات المتقدمة)

والحقيقة لقد شغلت ظاهرة تقسيم العمل اهتمام المفكرين والباحثين قبل دوركايم بفترة طويلة

حيث اشار ادم سميث الى الظاهرة على انها مصدرا اساسيا (لثروات الشعوب

وحيث سبق لأوجست كونت معالجة الموضوع بقدر من العمق مناقشاً التمايز كظاهر اجتماعية عامة ،

كما بحث تونيز وزيمل نفس القضية فيما نشراه من اعمال قبل دوركايم بفترة قصيرة

وعلى اية حال كانت وجهة النظر التي سادت الدوائر الفكرية وقت شروع دوركايم اعداد مؤلفه ، عبارة عن مزيد من التفسيرات التطورية والنفعية ، تمثلت في اعمال سبنسر ، ومن ثم اعتبر تحليل دوركايم في معظم جوانبه على انه رد فعل مباشر لأفكار سبنسر .

يبدأ دوركايم تحليله – في الكتاب الأول – بالتمييز بين شكلين للتنظيم :

: شكل آلي يصف نموذج غير متمايز للتنظيم يختص بالجموع المنعزلة والصغيرة التي لا يمارس فيها إلا قدراً ضئيلا من الضبط والسيطرة على البيئة المحلية ،

ويكون التجانس والمماثلة أساس الوحدة الاجتماعية ، في الوقت الذي يكون فيه التمايز في أدنى مستوياته ، وحيث تتماسك الفئات والشرائح الاجتماعية عن طريق ما هو عام ومشاع ، وحيث يوفر التماثل والتشابه تدعيماً متبادلاً للأفراد ، فالوحدة إذن عبارة عن تماسك (إلي ميكانيكي) يستند على التجانس فقط .

وفي مقابل هذا النموذج يذكر دوركايم شكلا أخر للتنظيم هو (النموذج العضوي) يصف به الترتيبات البنائية التي سادت في عصره وتميزت بدرجة عالية من التعقيد والتمايز ويقوم هذا النموذج على أساس الاعتماد المتبادل والأكثر تعقيدا للوحدات المتمايزة ،

فكأن التخصص وتقسيم العمل هنا هو السمات الأساسية للمجتمع ولا يقتصر على التمايز المهني بين الأفراد والجماعات بل قد يتسع هذا التخصص ليستوعب مجتمعات بأسرها ، ونتيجة لذلك تبطل (الانقسامية) بين المجتمعات والفئات الاجتماعية التي سادت النموذج الآلي كما تقل درجات العزلة والانفصال بين الوحدات المتمايزة.

ويشرع دوركايم بعد ذلك في شرح الظروف التي يستبدل من خلالها الشكل الآلي للتنظيم بالشكل العضوي

وفي هذا الصدد نظر إلى التغير الذي طرأ على التنظيم الاجتماعي ، كما لو كان يشتمل على نوع من التعاقب التطوري متفقا في ذلك مع وجهة النظر التطورية السائدة في عصره

ولكنه انتقد وبشدة وجهة النظر النفعية التي فسرت التمايز كنتاج لرغبة عقلانية لدى الإنسان لان يزيد من رفاهيته وسعادته ، لقد رفض دوركايم التفسيرات الفردية والسيكولوجية للظواهر الاجتماعية وتحول مباشرة إلى تصور المجتمع ككيان قائم بذاته ،

ثم يحول دوركايم جزءاً من اهتمامه بعد ذلك ، للجانب التطوري في نظرية سبنسر : فقد تصور سبنسر – كما قدمنا – انه مع زيادة المجتمع حجما، يزداد البناء تعقيداً والوظيفة تمايزاً

وذهب إلى أن هذا المبدأ يمثل خاصية مميزة للكيانات الاجتماعية ، كما هو خاصية ميزة للكائنات العضوية ، وهكذا تقلصت نظرية سبنسر عن التمايز لتصبح مجرد وصف يستند على حجم السكان ويربط بين الحجم وتمايز الوظيفة ،

ومع اعتراف دوركايم بأهمية الزيادة السكانية في إيجاد التمايز الوظيفي ، إلا انه رأى في حجم السكان عاملا أو سبباً ضرورياً ولكنه غير كافي لتفسير التمايز ،

وكان دليله في ذلك الإشارة إلى بعض الأمثلة الشاذة ، التي كشفت عن مناطق آهله بالسكان (في روسيا والصين) لا تتميز بدرجة عالية من التمايز ، بقدر ما تميزت بارتفاع معدلات التجانس وزيادة سيطرة التضامن الآلي ،

ثم ينتهي إلى أن التمايز وتقسيم العمل يزيدان بزيادة معدلات التفاعل الاجتماعي ، أو ما اسماه بالكثافة الديناميكية

التي هي نتاج مباشر للتغيرات التكنولوجية التي تسهل عمليات الاتصال والتبادل ، وان أكثر أشكال التفاعل إنتاجا للتمايز هي المنافسة التي تعد في نظره – متأثرا بالفكر الداروينى- الميكانيزم الحيوي لهذا التفاعل.

ومن وجهة النظر الايكولوجية تمثل الإسهام الأكبر لدوركايم في تأكيده لأهمية التقدم التكنولوجي في تطوير الأنساق المعقدة والمتقنة لتقسيم العمل ،

فقد أشار وبوضوح إلى تأثير كفاءة وسائل الاتصال في الربط بين الأنشطة المتمايزة وظيفياً والمنفصلة مكانيا ً مركزا بصفة خاصة على حالات التمايز الإقليمي أو المكاني التي ترتبط بتمايز الوظائف وتخصصها ،

أن تقسيم العمل – على نحو ما تصوره دوركايم – يقدم إطارا لدراسة احد الجوانب الهامة للتنظيم الاجتماعي ، أي درجة التمايز البنائي ، يمكن أن يطبق في التحليل الاستاتيكي والديناميكي للمجتمع .

وفضلا عن ذلك تفيد نظريته الموروفولوجية كثيراً في دراسة وتحليل مشكلة التمايز البنائي للجموع الإنسانية ذات البعد أو الأساس المكاني ، أي التمايز البنائي والوظيفي للمجتمعات المحلية كأهم ما يعنى به الباحث الايكولوجي .

مما سبق يتضح لنا انه ليس من قبيل المبالغة أن قلنا أن الفكر الدوركايمي قد شكل الإطار العام للايكولوجيا الاجتماعية منذ بداية ظهورها على يد بارك وزملائه من مدرسة شيكاغو

ففي مقالة هامة لبارك بعنوان (المجتمع المحلي الحضري كنمط مكاني ونظام أخلاقي) سنة ١٩٢٥، حدد بارك موضوع الايكولوجيا البشرية فيما اسماه دوركايم ومدرسته بالجانب المورفولوجي للمجتمع

وفي كثير من كتاباته استخدم بارك مفهوم المنافسة على نحو قريب الصلة باستخدام دوركايم له

فعلى سبيل المثال يقرر بارك(أن المنافسة تحدد التوزيع المكاني والمهني للسكان ، وان تقسيم العمل والاعتماد الاقتصادي المنظم ، والواسع النطاق بين الأفراد والجماعات كخاصية مميزة للحياة الحديثة كان نتاجا مباشرا للمنافسة)

لذلك كان من الطبيعي أن يتفق بارك مع دوركايم في النظرة إلى البناء كما لو كان ناتجا عن المنافسة في سياق القدرة ولو انه – أي بارك- لم يكن أكثر تعمقا من دوركايم في تفسيره للعملية ككل ولأسبابها.

وبالمثل يلاحظ أن لدوركايم فضل السبق فيما قدمه ماكينزي من تصورات ايكولوجية فيما يتعلق بظهور (المجتمعات المحلية المتروبوليتية)

لقد افرد دوركايم – كما رأينا – عناية خاصة لتأكيد دور التقدم التكنولوجي في مجال المواصلات والاتصال في القضاء على العزلة والانقسام الاجتماعي

ويأتي ماكينزي بعد ذلك فيتخذ من نفس التصور تفسيرا ايكولوجيا لظهور المتروبوليس حين أشار إلى أن المجتمعات المحلية التي ميزت بعزلتها وتميزها المكاني ، أصبحت اليوم على صلة وثيقة ومتبادلة مع بعضها البعض من خلال التقدم الذي طرأ على وسائل الاتصال ،

وان أهم ما يميز النمو المتروبوليتي للمجتمعات ، تطوير نسق معقد من تقسيم العمل مكانياً بين مجتمعات كانت ذات اكتفاء ذاتي فيما مضى ،

ثم أخيراً عندما نظر إلى العملية ككل كما لو كانت نتاجاً للتقدم التكنولوجي الهائل فوصف المجتمع المتروبوليتي بأنه

(وليد الإمكانات والتسهيلات المتطورة لوسائل الاتصال)

وعلى الرغم من أن تحليل دوركايم كان قد تحدد على مستوى المجتمع مركزا على التمايز المهني استخدم ماكينزي نموذجاً مماثلا لتحليل التمايز المكاني على مستوى المجتمع المحلي والمستوى الإقليمي ،

حيث اعتبر عمليتي التمايز كما لو كانا عملية واحدة ، موضحاً أن الوحدات التي غدت على احتكاك واتصال وثيق ببعضها البعض عن طريق تقدم وسائل الاتصال أصبحت وحدات متنافسة كما أصبح حل هذا الموقف التنافسي في نظره على المستوى المحلي والإقليمي أكثر تأثرا بالتمايز المكاني .

ولقد كان من الطبيعي أن يهتم علماء الايكولوجيا المعاصرون بنفس المشكلة التي عني دوركايم بمعالجتها في الجزء الثاني من كتابه تقسيم العمل

فكما حاول دوركايم أن يفسر احد مظاهر البناء الاجتماعي ممثلا في التمايز اهتم الايكولوجيون في وقت لاحق من تطور الايكولوجيا الاجتماعية بتحديد العوامل التي تؤدي إلى تنوعات البناء :

: فعلى سبيل المثال ، حدد هارلي الايكولوجيا البشري بأنها (دراسة شكل المجتمع المحلي وتطوره) بل تجده يستخدم نفس عبارات دوركايم فيقرر أن أهم ما يعنى به الايكولوجي (وصف وتفسير مورفولوجيا الحياة الجمعية في جوانبها الاستاتيكية والديناميكية)

وبالمثل نجد جيمس كوين J.Quinn يعلن عن منطق البحث الايكولوجي وفلسفته ، مشيرا إلى دراسة (الهرم المهني) كموضوع محوري في الايكولوجيا إلى جانب الاهتمام بدراسة التوزيعات المكانية

كذلك سارات معالجة هاولي لموضوع التمايز في نفس الخطوط التي سارت فيها معالجة دوركايم ، حتى أننا نجد توازيا واضحاً بين التنميط الدوركايمي للتضامن الآلي والعضوي ، وبين المفهومات الثنائية التي قدمها هاولي كالتعايش والتكافل والجماعات التابعة والمستقلة.. الخ ،

أن كلا من دوركايم وهاولي أشارا إلى نمطين مختلفين من العلاقات ونموذجين متباينين للتفاعل بين الوحدات المتماثلة والمتباينة وشكلين متميزين للتنظيم الاجتماعي استنادا على شكل العلاقات التي تسود كل منهما

أضف إلى ذلك أن كلاهما كان جادا في البحث عن العوامل التي أدت إلى القضاء على الانقسامية والعزلة بين الوحدات التقليدية والتي مكنت من الارتباط الوظيفي الوثيق للوحدات الكبرى وساعدت على تطوير بناء اجتماعي أكثر تعقيدا واشد تمايزا

وحتى في مجال الإيكولوجيا الثقافية وهي أكثر اتجاهات التفكير الايكولوجي حداثة ، يلاحظ انه ثمة التقاء جوهري واضح مع الخطوط المميزة للفكر الدوركايمي ، إذ على الرغم من أن ستيوارد لم يركز بصراحة على دراسة التنظيم مفضلا الاهتمام بالثقافة كمتغير تابع ، وعلى الرغم من تأكيده واهتمامه بالبيئة الفيزيقية على نحو يفوق اهتمام دوركايم إلا أن كثيرا من أفكاره كانت نتاجا للتأثير الدوركايمي غير المباشر من خلال إسهام دوركايم في مجال الانثروبولوجيا الوظيفية

وهكذا يتضح لنا أن جانبا كبيرا من أفكار دوركايم وتصوراته كانت تمثل مصادر سوسيولوجية مبكرة للمدخل الايكولوجي ، سواء في صورته التقليدية المبكرة أو في صورته الحديثة والمتطورة ،

ومع ذلك لا تزال نظرية دوركايم بحاجة إلى بعض التعديلات حتى يمكن الاستفادة بها في التحليل الايكولوجي إلى أقصى درجة ممكنة ، وربما كان أكثر هذه التعديلات أهمية ضرورة الاهتمام بالبيئة كعامل أو متغير تفسيري جدير بالاعتبار

فلقد تبين لنا من قبل كيف أن الايكولوجيا – نتيجة لما ورثته عن البيولوجيا – تفرد للبيئة الفيزيقية وأثرها على البناء الاجتماعي تقديراً بالغاً ، ولا يعني ذلك أن يتحول الباحث الايكولوجي إلى نوع من الحتمية البيئوية، بل يعني فقط أن يوضح مدى ملائمة البيئة كما هي معدلة بالاستخدام المنظم للتكنولوجيا كمتغير تفسيري.

وعلى الرغم من أن اهتمام الايكولوجي ينصرف في المقام الأول إلى دراسة التفاعل بين الإنسان وبيئته إلا انه كباحث سيوسولوجي لا يجد مفراً من دراسة العلاقات المنظمة بين الإنسان وغيره من بني جنسه داخل القاعدة البيئية وهذه بعينها جوهر التحليل المورفولوجي أو هي بمعنى اصح ما اسماه دوركايم(بالبيئة الاجتماعية) .

Done